المرأة والحب في شعر هادي الحمداني

أ.د. رباب هاشم حسين

كلية التربية-الجامعة المستنصرية

الكلمات المفتاحية: المرأة، الحب، تمثلات المرأة قديما وحديثاً في الشعر.

الملخص:

لم تنبع أهمية حضور المرأة في شعر الشعراء العرب منذ أن عرف الشعر حتى الآن كونها المحور الاساس في مجمل الاغراض الشعرية وأصدقها في التعبير عن ذات الشاعر، وأشدها التصاقاً بخافق الفن والأدب فحسب، وإنما تعد من أهم مصادر دراسة الحياة العاطفية والاجتماعية للشاعر ومن ثم المجتمع الذي يعيش فيه، فالجوانب العاطفية لا تقل شأناً عن الحياة المادية لأنها تنم عن الذوق العام وعن طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة وموقعها في خضم المجتمع الذكوري الذي يهيمن على الحياة في بلداننا العربية على الرغم من التطور الهائل والتأثيرات الأوربية في مفاصل مجتمعاتنا.

إن المرأة الحبيبة التي رسمها شعراء العراق المحدثون- والحمداني واحد منهم- في غزلهم كما ترى عربية توفيق لازم ((ليست هي المرأة التي خلقت لامتاع الرجل فقط كما يراها رجل الأمس، بل هي المرأة الإنسان شريك الحياة التي تمنح العطاء الروحي والمعنوي والاطمئنان والسعادة، وهذه النظرة هي التي جعلت اكثر الشعراء يرتفعون بعواطفهم نحو المرأة.. يهتمون بتصوير نفسيتها وتحليل ضحكتها وحديثها ونظرة عينيها كما التفتوا إلى صورتها وحنانها وهدوئها ورقتها..))[1]. ولقد توزعت تلك النظرة بين الشعراء فمنهم من غاب في عوالمها الروحية إلى التصوف ومنهم من اغرق نفسه في جوانب المتعة والحسية ومنهم من وازن بين الروح والجسد وتعامل مع المرأة انساناً لها مشاعر وعواطف وحاجات غريزية لا يمكن نكرانها، وهذا في ظني ما حدث وليس كما تذكر الدكتورة عربية توفيق من أن نظرة جميع الشعراء كانت روحية قوامها النبل والعذرية ووصف الملامح الجمالية.

لقد مثلت المرأة المحور الأهم من عالمه الشعري، إذ استولت على مكانة ملفتة للنظر، بل ان كثيراً من نصوصه الشعرية كانت وقفاً عليها، ومناجاة لها، ويكفي هنا أن نشير الى ان ديوان الشاعر قد احتويا على نصوص غزيرة موجهة للمرأة بشكل مباشر فالمرأة هي الأطار الروحي والجسدي لمجمل قصائده.

لعل في اختياري شعر هادي الحمداني مايضئ جوانب عديدة في تعامله الشعري مع المرأة لم يسبق ان توصل اليها النقاد سابقا.

أما منهج البحث فيقوم على اعطاء الأولوية للنص الشعري، للوقوف على بنيته الداخلية وقراءة صورة المرأة والافادة من معطيات المنهج التحليلي.

فالحياة العاطفية- إذن- هي التي تقرر سلوك الشاعر وسيرته وتطوره، وتحدد الذوق الجمالي لديه ونظرته إلى الحب بوصفه أسمى العواطف الانسانية التي تعيش في اعماقه، ولولاها لما بقي الغزل محتفظاً بحيويته وقدرته الفنية على التأثير منذ القدم حتى عصرنا الحاضر، بل أصبحت الحاجة إلى شعر الغزل والحديث عن المرأة أشد في العصر الحديث بعد أن طغت العلاقات النفعية والمصالح المادية عليه، وشوهته الحروب ولوثت نقاءه ممارسة المستعمرين في سلب الاحلام المشروعة للشعوب واجهاض طموحاتها.

إنَّ هذا العصر- ولاسيما في بلدنا- بحاجة إلى من يهزه من صقيع غية ويلفحه بلهب الحب ليفجر الينابيع بعد تعثر وانحسار في مجاريه، إنه بحاجة إلى من يخلع عن تاريخنا ما تراكم من غبار حجب عنا روح الحب والمشاعر الاليفة واللغة الأنيقة، ويفتح أمامنا عوالم تطل من خلالها على آفاق أرحب فيها الخير والجمال وبعث الحب، إنه- أعني الحب- ارتعاشة قلب وشفق بسمة، ودمعة جفن وقطرة ماء في صحراء، وصليل سيف، وانكسار طرف، وطلوع فجر مشرق، ويفجر ينابيع في قلب الشعراء، إنه نور يلقيه المحب- ولاسيما الشاعر- على الاشياء والجود فيبدد الظلمة ويهتك أسوار الغباء البشرى ويمزق ما يحيط بالنفس من حجب تحول دون وجه الشمس.

حياة الشاعر:

ولد الشاعر في مدينة الشطرة في الناصرية، انتقل الى بغداد وأكمل مراحل تعليمه الاولى والمتوسطة والثانوي فيها كما حصل على شهادة البكالوريوس من جامعة بغداد عام 1956م، وواصل دراسته العليا في انجلترا فحصل على دكتوراه الفلسفة، وقد عمل معلماً بالمدارس الابتدائية والمتوسطة في العراق (1950 -1960)

ثم عمل بالتدريس في الجامعات العراقية، وعمل بالتدريس في جامعات اليمن ومنها جامعة عدن وترأس قسم اللغة العربية في كلية الآداب / عام 1968-1972 وكان عضو الهيئة العليا لسلامة اللغة العربية (1977-1982م) وعضو اللجنة العليا لمناهج اللغة العربية (1981-1994) وعضو هيئة تحرير مجلة الضاد (1980-1990) توفي في بغداد له ديوان واحد مطبوع في بغداد[2].

المرأة وتمثلاتها في شعر الحمداني

ان الحب والمرأة أخذا مساحة واسعة في شعرنا العربي القديم ولدى شعرائنا المحدثين فلا نعدم في شعرنا العراقي الحديث ديواناً كاملاً تبنى موضوع المرأة والحب كما نرى في: (ألحان الألم) لعبد القادر الناصري، و(يوميات مراهق) و(بابلون) لصفاء الحيدري، و(قصائد عارية) لحسين مردان، و(طبول الرعب) لحساني الكردي و(نون والأخريات) لغازي الكيلاني، و(ليالي الإثم) لحارث لطفي الوفي، و(لهاث الحياة) ليوسف عز الدين، و(مهراً لعينيها) لمحمد علي الخفاجي.. وآخرين ولعل أكثر هذه المجاميع الشعرية كانت تختنق بتجربة نفسية محدودة قوامها الاخفاق والشكوى بحيث لم تستطع أن تهب موضوع الحب شموله وتخرج به على خصوصيته بحيث يبدو أن قصيدة واحدة يمكن أن تغني عن قصائد لفرط ما تميزت تلك القصائد بالتكرار واللجاجة العاطفية[3].

ومن الطبيعي أن يقع شعراء العراق، ولاسيما في النصف الاول من القرن العشرين في مثل تلك الاختناقات العاطفية لأن الظروف الاجتماعية والنفسية تؤكد الحرمان العاطفي والعلاقات المبتورة بين الرجل والمرأة. كما أن بدايات أي مرحلة لابد أن ((يسودها الاضطراب والضعف والسذاجة الفنية، وربما لحقتها انفاس وسمات من هذا القديم الذي ترفضه أو تثور عليه))[4]، وهذا ما نلاحظه في بواكير شعراء النزعة الرومانسية المحدثين في العراق في تلك الحقبة، أن روح العصر كما تقول اليزابيث درو ((تؤثر فينا لا شعوريا مهما نتشدق باستقلالنا أو نحاول جاهدين أن نحقق ذلك الاستقلال، لأن لون الثقافة ومبلغ وعينا يدفعاننا دائماً إلى اتخاذ بعض المقاييس الفنية وطرح بعضها، وكل عصر ككل انسان يحب اشياء ويكره أشياء وغالباً ما تصبح الاصنام التي قدمها جيل ما العوبة يتندر بها الجيل الذي يليه))[5]، ولعل الدكتور هادي الحمداني قد أحدث نوعاً من التطور في المضامين الشعرية بالنسبة لشعراء جيله نسبياً على الرغم من المبالغات العاطفية والخيال

الجامح والروح المرحة وعشق جمال المرأة لديه، ولاسيما في موضوعة الحب والمرأة كما سنأتي على ذلك فيما بعد..

تحتل المرأة في نفسية الشعراء منذ القديم موقعاً مرموقاً ولاسيما المرأة الحبيبة أو المعشوقة، وهناك اختلافات جوهرية في رؤية الشعراء للمرأة ناتجة عن طبيعة البيئة والعصر الذي ينتمي إليه الشاعر بما يتضمنه من اتجاهات واعتبارات اجتماعية وفنية.

إن المرأة الحبيبة التي رسمها شعراء العراق المحدثون- والحمداني واحد منهم- في غزلهم كما ترى عربية توفيق لازم ((ليست هي المرأة التي خلقت لامتاع الرجل فقط كما يراها رجل الأمس، بل هي المرأة الإنسان شريك الحياة التي تمنح العطاء الروحي والمعنوي والاطمئنان والسعادة، وهذه النظرة هي التي جعلت اكثر الشعراء يرتفعون بعواطفهم نحو المرأة.. يهتمون بتصوير نفسيتها وتحليل ضحكتها وحديثها ونظرة عينيها كما التفتوا إلى صورتها وحنانها وهدوئها ورقتها..))[6]. ولقد توزعت تلك النظرة بين الشعراء فمنهم من غاب في عوالمها الروحية إلى التصوف ومنهم من اغرق نفسه في جوانب المتعة والحسية ومنهم من وازن بين الروح والجسد وتعامل مع المرأة انساناً لها مشاعر وعواطف وحاجات غريزية لا يمكن نكرانها، وهذا في ظني ما حدث وليس كما تذكر الدكتورة عربية توفيق من أن نظرة جميع الشعراء كانت روحية قوامها النبل والعذرية ووصف الملامح الجمالية.

المرأة والحب في شعر الحمداني:

الحب في شعر الحمداني بمثابة الفن نفسه، أنه أداة لشفاء جرح وخلاص من وضع لا يطاق ونشوة تمتلك الانسان الشاعر، والمرأة دائماً هي محور هذه النشوة ومصدر هذه النعمة، ولقد ولع الحمداني بالجمال وإيثاره إياه باعثاً للحب مما جعله يخلف رصيداً كبيراً من شعر الحب لقناعته بأن الحب هو السبيل إلى معرفة النفس والوجود انه في رأي الدكتور هادي الحمداني يدفع الانسان إلى الاكتمال والسمو والبناء، فهو ينبه المخيلة في الشعر ويوفر مادة الابداع والخلق انه شرك تنصبه الطبيعة للانسان كي تبقى الدنيا عامرة بالجمال والحفاظ على النوع. وأن حب الرجل للمرأة من اعنف وأعتى العواطف الانسانية التي تجتاح قلب الشاعر، فمتى استبدت به طوحت عقله وعصفت بنفسه، ولعلي لا افلسف حين اقول إن المرأة لا تحب التفلسف كثيراً حول الحب كما يفعل الرجل بل هي أكثر التصاقاً بواقعية الحب منه، وإذا صح رأي فرويد في الحب ((بأنه رغبة جنسية

مؤجلة فإن السبب في ديمومة الحب العذري واشتداده هو عدم اشباع تلك الرغبة لأن اشباعها دون زواج هو الذي يطفيء الرغبة))[7].

أما أثر الحب في تهذيب الشاعر واكتمال خلقه وشخصيته كما اشار إليه الحمداني نفسه فقد خصه الكتاب بمؤلفات كثيرة لأن الحب ((هو الينبوع والمصدر لكل الاشياء الخيرة ولولاه ما عرف الإنسان معنى اللطف إنه يحول الرجل الغظ الغليظ إلى ظريف لين العريكة))[8].

ويرى أريك فروم ((أنَّ الحب هو أحد مناحي التوجه المثمر في الحياة أو كما يسميه (الانتماء الخلاق الفعال) ففي تجربة الحب يحدث أمر غريب هو أن الشخصين يصبحان واحداً ويظلان أثنين في الوقت نفسه))[9]، ولقد كانت نظرة الحمداني للحب والمرأة نظرة جمالية خالصة فقد ولع بالجمال ولعاً لا يعرفه إلا من عاشره وقراً شعره ولقد قاده ولعه بالجمال إلى الحب أو عدم التوحيد بالحب فراح يبحث عنه في وجوه النساء الجميلات اللاتي التقاهن ومن هنا دخلت المرأة الى شعره بما يتفق وفلسفة الحب لديه ولا يعني حضور المرأة في شعره بالضرورة كانت واقعاً فعلياً وإنما على مستوى الواقع الفني الجمالي، فالشعر كما نعتقد ليس وثيقة اجتماعية أو شخصية نحاكم الشاعر من خلالها ونحكم عليه كإنسان، ومن حقنا أن نرصد ذلك عليه بوصفه شاعراً ليس ملك نفسه وما نلاحظه لا يؤاخذ عليه بوصفه انساناً، فقد استمتع الحمداني بالمرأة وأنبهر بجمالها وتألم لفراقها وشقي في حبه وطابت له الحياة معها وتنغصت بصدودها، ومنحته المرأة خير ما تعطيه لرجل، وكل ذلك صوره في شعره بلا موارية أو وجل لكونه شاعراً محباً للمرأة، ولقد نامت المرأة على حرير كلماته وغفت فوق عش قلبه وتنقله بين شرفتي عينها وقبتي نهديها، فتألق حبه لها وفي شعره ذرف الشوق والدموع وإن كان في أحيان اخرى يسمو على احزانه فيثور ويغير طرفي المعادلة والدارس لشعر الحمداني يلاحظ فلسفة الحب لديه مشوبة في حديثه عن المرأة حين تعاطيه الحب وتتفاعل معه فالحب لديه ((جمال والحب رحمة والحب مغفرة والحب أغنية حزينة والحب ود وسلم وسلام وأمن وعافية وأمان والحب هو الأدب مثلما الأدب هو الحب))[10].

وكلما كان الحب قوياً وصعباً وسامياً قاد الإنسان إلى حافة الخطر المميت، فمادام الحب تسلط رغبة مطلقة يصعب إرضاؤها على الدوام فقد تدفع الانسان إلى أن يتمنى معها أن تتلاشى حياته في غياهب الموت، هذا بالنسبة للشاعر الموحد العنيف غير أن ((ظاهرة الحب ظاهرة اجتماعية عرفتها المجتمعات منذ أن وجدت،

وقد استطاع هذا الجانب أن يشغل مساحات واسعة في آداب الأمم لما زخر به من عواطف وفاض به من مشاعر))[11]. ولا نريد متابعة دور الحب في حياة الناس وفي الابداع الفني عموماً والابداع الشعري على وجه الخصوص ولقد شغل كثيراً من الكتاب والمؤلفين[12] وما نطمح إليه هنا هو الدخول إلى عالم الحمداني الشعري وأثر المرأة والحب فيه ومحاولة رصد تمثلات الحب في أطوار شعره وحياته.

المرأة في مرحلة الصبا (شعر الصبا):

الحب بلا تعبير تافه وفج والحمداني شاعر متفجر بالشعر مثلما هو متفجر بحب المرأة وهذا ما جعله يسجل مشاعره تجاه المرأة الحبيبة بجزئيات لافته للنظر، ويمكن أن نقول أن اتجاهه الشعري الغزلي أقرب إلى الشعراء الحسيين منه إلى شعراء الغزل العفيف فهو شاعر غير موحد في الحب أحب اكثر من امرأة، ولعله أحب امرأتين في الوقت نفسه مثلما فعل (دون جوان) قبله، فهو لا يلتقي مع شعراء الغزل العذري إلا بالاهتمام بالجوانب الروحية للمرأة والحديث عن بعض ما في دواخلها، فضلاً عن الجوانب الحسية الظاهرة ولكنه على أية حال يظل شاعراً (أبيقوريا) تشغله اللذة والمفاتن، ويميل إلى كل مظاهر الأنوثة في المرأة، ويستعذب استجابة المرأة لرغباته وأوطاره ويسلب لبَّه رضاها وقبولها اللقاء به تجسيداً للحب.

ففي مرحلة الصبا أحبّ طالبة مازالت يافعة ويحاول أن يغريها بأفكاره المتحررة بعض الشيء من أجل مبادلته الحب والثورة على الواقع الاجتماعي والتحرر من اقمطة التقاليد والاتراع من كوثر الحب الحسي والملذات، ولنستمع إليه وهو يداعب مشاعر المرأة الداخلية وعواطفها الخجولة ويحرك سواكنها ويضرب على وتر الحب المغري في استثارة كوامنها ليستثمر كل ذلك لرغباته وطموحاته المتفجرة، ففي قصيدته (الهاربة من المدرسة)[13] تتضح رؤية الحمداني للحب وتداعياته الحسية وإن كان لا ينسى الجوانب الروحية، ولكنه في النهاية يجسّد مقولة فرويد في ((أن الحب رغبة جنسية مؤجلة))، مهما تبنينا من مظاهر روحية وخلقية وقيم النبل والتسامي، ولعله هو الذي شجعها على الهروب من المدرسة لتلتقي به كما يتضح:

أترعي الكأس فقد لذَّ الهوى ... واستزيدي الكأس منه وأشربي
حقب العمرِ قصيرات المدى ... ننثني من بعدها للتترب
قادك الحبُّ إلي ينبوعه ... ومشى فيك بأزهى موكب
فلم الذّعر؟ أتخشين الهوى ... وجحيم الخافق الملتهب

أم تخـــافين الألـــى قـــد فشـــلوا أن يقضـــــوها بعـــــيشٍ طيّـــــب
لا تخـــافي، الصـــبابات قضـــتْ أن تهيمـــي فـــي فضـــاءِ رحـــب
ولتثـــوري مـــن تقاليـــد الـــورى التقاليـــــد قضـــــت أن تغضـــــبي
قلبكِ الفاتح فاه ولهاً يتصدى للهوى في عجبِ

وتهديـه إحـداهن طوقـاً مـن الياسـمين مـا يكـاد يـذبل حتـى يسـتثير ذلـك شـاعريته فيتـألم لخوفـه أن تـذبل تجربـة الحـب وتتهـاوى مثلمـا جـفّ الياسـمين، وتتـداعى في نفسـه الظنـون والهـواجس مـن انتهـاء هـذا الحـب وهـو يريـد لعلاقتـه الديمومـة والتواصـل ولعـل في اهتمامـه بهـذه الجزئيـة مـا يشـير إلى التمسـك بـالمرأة مـادام لـم يسـتنفذ تجربتـه معهـا وإلى ناحيـة فنيـة لا تخلـو مـن طرافـة وابـداع فبعـد أن كانـت المـرأة نفسـها هـي محـور الاهتمـام بكـل صـفاتها الظـاهرة والباطنـة التفـت الحمـداني إلى أشـياء المـرأة الصـغيرة مـن ملاقـط شـعر- إلى أشـرطة الحريـر إلى أطـواق الياسـمين... الـخ، وأصـبح (طـوق الياسـمين)[14] قضـية فنيـة يسـتنطقها الشـاعر ويتفاعـل معهـا وينعكس ذبـول الطـوق على مشـاعره فيبـدو حزينـاً متأسـياً وهـذه لعمـري روح الفن الأصيل وسموّ الشعرية، يقول:

كان بالأمس يرفُّ
وعليه الزهو يغفو
وندى الفجر يجفُّ
والفراشات تهامت من حواليه تسفُّ
حائماتٌ تلثم الزهر بشوق وتلفُّ
يا له من موكب للعرس بالبشرى يزفّ
وبدا فيه ذبولُ
وجفاف ومحولُ
وانتهاء وأفولُ

لقـد تـألق الحمـداني في قصـيدته هـذه مـن زاويتـين: الأولى أنـه أهـتم بموضـوع لـم يخطـر على بـال الشـعراء كثيراً ولا حتى في بـال المـرأة نفسـها ولاسـيما في تلـك الحقبـة الزمنيـة التي شـاع فيهـا الاهتمـام بـالمرأة وملامحهـا الجسـدية والروحيـة فقـط غيـر أن الحمـداني الـتقط جزئيـة في حيـاة المـرأة لهـا تمـاس بـالمرأة الحبيبـة وكـل مـا في الحبيبـة محبـوب وكـل مـا تمنحـه يعـد جمـيلاً، والثانيـة: انعطـاف الحمـداني إلـى التلاعـب

بالتفعيلات التراثية والتصرف بالعروض رغبة في التنوع الموسيقي بين مقطوعة وأخرى وهو وإن لم يخرج على (بحر الرمل) فقد تلاعب بتفعيلات هذا البحر بطريقة لافتة للنظر سبقه إليها شعراء المهجر، حيث جعل المقطوعة الأولى تحتوي تفعيلين (فاعلاتن فاعلاتن) وجعل المقطوعة الثانية تتركب من اربع تفعيلات (فاعلاتن) وهو في ذلك التزم بالعدد الكلي لتفعيلات الرمل، وهي (ست) كاملة، غير أنه أفاد من هذا الخروج الشكلي ناحية موسيقية مؤثرة بوضعه قافية للمقطوعة الأولى ذات التفعيلتين وقافية أخرى للمقطوعة الثانية ذات الأربع تفعيلات فصارت القصيدة روعة في الأداء الموسيقي المعمق للدلالة.

وفي قصيدته (لا تطيلي البعد)[15] تتضح رؤيته الحسية في حبه للمرأة ورغبته في اغتراف الملذات منها وهو يدعوها إلى العودة سريعاً من سفرها لأنها بذلك تحرم الشاعر ومن ثم تحرم نفسها من جماليات التقاء الشفاه والقبل المحمومة التي تعبر عن اشتعال الشوق ونار الرغبات المستعرة فتحدث صوتاً لا يجاريه إلا صوت الأذان:

سكن الليل فلم يسمع صدانا ... ورنا الفجر فلم يبصر لقانا
قُبَلٌ كانت مع الليل صدى ... ومع الفجر صلاة وأذانا
قُبَلٌ يشتعل الليل بها ... فتضيء الفجر منها شفتانا
وسريركم جلسنا فوقه ... يتصبي لك شوقاً وحنانا
وهنا مدفأة كم سهرتْ ... تبعث الدفء سخياً كلقانا

لعل اتجاه الحمداني الحسي في الحب جعله يظن أن نهر الحب لا يصب إلا في بحيرة الملذات، ولا ضير في ذلك ((فالحب بذرة لا تنبت إلا في تربة من نار)) كما يقول حسين مردان، وهذا ما جعل شاعرنا مقتنعاً بأن مكان اللقاء الحميم أصبح طاهراً مقدساً بهذا اللقاء والحب اللذين يجمعانهما وهذه لعمري مفارقة شعرية مدهشة، فلتستمع إليه وهو يتحدث عن الدار التي ضمتهما في لقاء الحب الجسدي:

ظللتنا ورعت منا هوانا ... وسترعانا كما نرعى منانا
ظهرت في حبنا قدسيةً ... وزكت في حومة الحبِّ مكانا
ما لها اليوم بدت موحشةً ... بعد ما قد عمرت فينا زمانا

قلنا إن الحمداني ميال إلى الحب الحسي في رؤيته الجمالية للمرأة وهو بلاشك يتهاوى أمام جمالية تركيب جسد المرأة واثاراته، والحب بلا تجسيد يصبح بلا

معنى، وحينما يتحدث عن المرأة الحبيبة يغريه جمال الجسد بجزئياته المتناغمة فيلتفت إلى ما يثير الرجل في هذا القوام الجميل من مناطق الاثارة والمتعة، فماذا يقول الحمداني في قصيدته (اختلاجة قلب)[16]؟ لعل ما يلفت النظر في هذا النص الشعري هو (العنوان- المفارقة) لأنه يوحي بالعذاب والشوق والمعاناة الداخلية التي لا تصيب إلا العذريين بسبب الحرمان والتمنع، ولكننا نجد الحمداني يهيم بالحديث عن الشفتين والعينين والقوام والليونة والنهدين يقول:

على شفتيك كالطلّ الرضابُ ... وفي خديك كالجمر التهاب
وفي عينيك للأعمى بريق ... وفي نهديك للنور انسكاب
وفي هذا القوام إذا تثنىّ ... أفاعٍ في طبيعتها انسياب
كأن خدودك الحمراء ورد ... وفيض القلب منبعها المذاب

ولا يخفى ان الحمداني في قصيدته هذه لم يخرج عن تشبيهات الشعراء العرب وهو في هذا يصب في سياق الغزل العربي ولا يختلف كثيراً عن سابقيه في تشبيهاته وصوره الشعرية فالخدود كالورد أو الجمر والعينان لامعتان كالبرق وابيضاض النهدين كالنور وتثني القوام كالغصن أو كالافعى وكلها تشبيهات مجتلبة من حقول دلالية مستخدمة من لدن الشعراء العرب في حقول الغزل الشائعة، ولم يكن للحمداني فضل كثير فيها ولعلَّه- كما أظن- أراد لقصيدته أن تصل إلى قلب حبيبته العارفة بهذه التشبيهات الشائعة المدركة لأبعادها.

ظل شاعرنا يعيش الحب بعنفوان لا مثيل له فإذا ما تمنعت امرأة فهو لا ييأس أبداً لأنه عارف بخفايا نفسية المرأة وتمنعها ودلالها وكبريائها يظل يطرق على قلبها الذي انفتح لحبه حتى يستجيب جسدها لاحقاً وهو مطمح مشروع بالنسبة إليه إذ لا قيمة للحب إذا لم يتجسد في السلوك، ويعد جهد وعناء وانتظار يلتقي الحبيبة فيسجل ذلك اللقاء في قصيدة رائعة عنوانها (والتقينا)[17] يقول فيها:

والتقينا
بعد ما كان محالا
فبدأناه وصالا
وحشدناه خيالا
لم نكن نحلم يوماً بوصالِ
ولقاء كان سحري الخيالِ

دهشت من حبنا حتى الليالي

ويبدو أن الحمداني مستمتع في التلاعب بتفعيلات (الرمل) بهذه الطريقة حتى أننا نجده يكررها عدّة مرات رغبة منه في تنوع موسيقي مؤثر، ولقد أشرنا إلى أنَّ المفارقة واضحة في بعض عنوانات قصائده كما نرى في قصيدته (خلجات)[18] بعنوانها الموحي بمعاناة قاسية وألم ممض وخلجات يتكسر فيها القلب ولكنه يفاجئنا بأنه يتحدث عن دواخل محبوبته ثم ينحرف إلى وصف مفاتنها، فهو يرسم صورة لأمرأة زميلة له (طالبة) أحبها وهو يحاول أن يطمئنها حتى يزول الخوف من اعماقها ولعلها حريصة تخاف (الرسوب) ولكنه يغريها بالفوز بالحب وستنجح بلا شك أنه يغريها ويقنعها أن لا خوف ابداً وأن النجاح حليفها وأن النهاية مهما كانت فهي جميلة مادامت معه:

حرام يا حبيبة أنْ تئني ... وإن يطغى بجانحك النحيبُ
أرى ما بين جفنيكِ ارتعاشاً ... كأنَّ القلب بينهما يلوب
دعي افكارك السوداء حينا ... فأنّ العقل مسلكه غريب
ولا يشغلك أن الدرس صعب ... وأن نهاية العام الرسوب

وفي جلسة منفردة مع امرأة ما تمتد يده أو يدها فتلتقيان بحرارة وكان الشاعر قد اقنعها بحبه ولكنها لم تظهر ذلك فكانت (اليد) هي الشارة التي جعلت الشاعر يتجرأ أكثر ويحاول أن يقنعها بأن (اليد) هي بوابة القلب إذا استجابت للمس فلابد للقلب من الاستجابة، ولعله يعرف جيداً أنها تحبه ولكنها تخاف أو تخشى أو تتمنع أو تدعي التمنع وهو بتجاربه وذكائه يحفظ لها كبرياءها ويشعرها بأنه محتاج إلى رقة قلبها، وكان حبه قد اخترقها فلا مناص من الاستجابة ولا مبرر للتظاهر بالصلابة وقسوة القلب، يقول:

يدك الحنون وقلبكِ المتصلد ... هذا يجور هذه تتودد
ما ضره أن لو تلطف رحمةً ... نحوي وكان من اليدين تمرد [19]

لا ينفك الحمداني يهيم بمفاتن المرأة ويصفها في شعره ويذرف الدمع حين تنقطع عنه تلك المفاتن فإذا ما ضم الحبيبة بيت أهلها ارسل عينيه تستقصي شبابيك غرفتها بحثاً وراء السّجُف عن قوامها الأهيف، ويتحول قلبه إلى طائر يلوب ليرى اثوابها الشفيفة تغطي النهدين، فيقول:

هـذا الفـؤاد كطيـر حـام فـي ولـه فلـيس تمنعـه عـن امـره سـجف
علـى النهـود قمـيص النـوم منسـدلاً ماشـاء مـن صـور الاجـرام يقتـرف
ماشف إلا لأن الحبَّ اسقمه وماوهى رغم ما أورى به التلف[20]

المرأة في مرحلة الكهولة:

كانـت المـرأة الجميلـة قـدر الحمـداني الجميـل ولقـد عـاش وودع هـذه الـدنيا والمـرأة أجمـل القصـائد في قلبـه، فهـو مسـكون بهـا عاشـق لمفاتنهـا مهـتم بملامحهـا الدقيقـة غـارق في الحلـم مـن اجـل الحصـول عليهـا، ولعلـه كـان مقنعـاً جـداً يعـرف كيـف يـدخل قلبهـا ويقـتحم أجواءهـا ويهـد كيانهـا ((ولكـن الحـب كسـائر الاشـياء حينمـا يكتمـل وينضـج أو إن شـئت فقـل حينمـا يصـل إلى الـذروة يبـدأ في الـذبول لتتجـدد النفـوس مـع حـب آخـر جديـد))[21] وهـذا هـو شـأن الشـعراء ولاسـيما شـعراء الغـزل الحسـي غيـر الموحـدين كالحمـداني وغيـره، ولعـل تجاربـه المتعـددة وفلسـفته السـابقة جعلتـه يستسـهل الحصـول على المـرأة وايقاعهـا في شـرك حبـة اللذيـذ، فلـم تكـن الاسـتحالة بمكـان ولـم يستصـعب اقتحامهـا وكـان ذلـك سـبباً مهمـا مـن أسـباب وقـوع الحمـداني في دائـرة (النرجسـية)- أن صـح التعبيـر- في أحيـان كثيـرة، فـإذا بـه يقلـب المعادلـة ويتحـول في هـذه المرحلـة إلى معشـوق واصـبح هـو بـؤرة القصـيدة بعـدما كانـت المـرأة هي المـلاك الجميـل الـذي يـدور حولـه الشـاعر ويحـرق البخـور في ارضـائها ويسـتعذب الخضـوع لهـا، الحمـداني جعـل المـرأة هي التي تطمـح إلى ارضـائه ورعايتـه وتخـاف فقدانـه وتتمسـك بحبه وتهتم به، يقول:

تخـافيني إذا مـا ثـار قلبـي فقلبـي عنـد ثورتـه عنيـف
وتهـوين التنـاقض فـي وجـودي فمـن أحببـت انسـان طريـف
عنيـف فـي عواطفـه عنيـف أليـف فـي مشـاعره أليـف
لـه قلـب علـى حـين حديـدٌ وفـي حـين لـه قلـب لطيـف
تحبين التناقض أي قلبٍ يحب مثيل قلبي لا يعيف [22]

لا يفـوت الـدراس مـا في هـذه الابيـات مـن اعتـداد بـالنفس والتسـامي فـوق الضـعف والثقـة بـأن المـرأة لا تعيفـه، حتى انـه يهـددها بـأن قلبـه، حـين يثـور لا يبقـى ولا يـذر فعلهـا أن تتعامـل مـع قلبـه بالرقـة والمـودة والمشـاعر النبيلـة، ثـم يؤكـد لهـا بأنهـا لـم تخسـر في حبها مادامـت تحبـه لأن قلبـه لا يمـنح لمـن يشـاء، ولأنـه أصـبح لهـا فلتهنـأ بـه لأن

هـذا القلـب ملـك لمـن يفهمـه ويقـدره، ويبقـى الحمـداني يـدور في حلقـه الحـب الحسـي فيذكرها بما كان بينهما من مشاعر أخذت طابعاً حسياً لا يمكن نسيانه:

أحقـــاً لســـت أطبـــق بعـــد ثغـــري ... علـــى ثغـــرٍ وتختنـــق الأنـــوف؟!
ولا كفـــي تلـــم شـــتيت شـــعرٍ ... نثيـــرٍ فـــي تماوجـــه رفيـــف
ولا أخـــرى تحـــوش ثمـــار صـــدرٍ ... فترجـــع مـــلء ســـلتها قطـــوف
أحقاً لست أسمع بعد هذا ... حديثاً ليس تنكره السجوف؟!

ولا يفـوت المتأمـل لهـذه الابيـات روعـة الفـن وجمـال الاداء وحركيـة الصـور التـي فيهـا، فصـورها متلاحقـة متداعيـة ذات حركـة عنيفـة لا تسـمح للمـرأة بفرصـة للعقـل مـن اجـل العـودة، فالصـور الشـعرية تتناسـب مـع انشـغال المحـب في اسـتخراج مكامن جسـد الحبيبـة ومـواطن الإثـارة فيهـا فهـو منغمـر إلى حـد الانهمـاك في (ملء سـلته مـن قطـوف الصـدر) ثـم لاحـظ حركـة (((تحـوش ثمـار صـدر)) وتأمـل حركـة يـد مـن يقطـف الثمـار كيـف تكـون؟ ومـاذا يعنـي ذلـك؟ أمـا في قصـيدته (اللقـاء الأخيـر)[23] فيتـألق الحمـداني في وصـف اللقـاء الـذي لا يخـرج عـن طموحـه المعـروف في مرحلـة الصـبا وأعني الاغتراف مـن مفـاتن المـرأة والـتلاحم معهـا تجسـيداً لحـب يمتلكهمـا، ولقـد أجـاد الحمـداني في هـذه القصـيدة إلى الحـد الـذي جعلـه يعـود إلى اسـتخدام التصـرف العروضـي بتفعـيلات (الرمـل) ولعـل هـذه القصـيدة كمـا اشـار امتـداد لقصـيدته الأولى (والتقينـا) التي اعجبـت حبيبتـه الحاليـة فآلـت إلا ترضـى إلا بمثلهـا أو أحسـن، يصـف فيهـا مـا دار بينهمـا ولعلـه اقنعهـا بـأن القصـيدة الأولى لـم تـأت اعتباطـاً بـل ثمـرة عطـاء وبـذل منحتـه المـرأة الأولى لـه فكانـت تجربـة واقعيـة، ولعـل هـذه اسـتجابت هي أيضـاً لتفوز بقصيدة الشاعر (اللقاء الأخير)، يقول:

والتقينا
كان أحلى من لقاء
كان بعثاً من فناء
كان موفور العطاء
هكذا النفس إذا جادت لنفس
وأقامت لهواها أي عرس
وغفت عن دهرها من غير حسِ
لست أدري كم غفونا

ومتى منه صحونا
وبما نحن لهونا

حبذا لو نسي القلب وجوده
حبذا لو أنه شدَّ قيوده
حبذا لو جعل الصدر لحوده

وهكذا يغيب الشاعر عن هذا العالم في نشوة اللقاء بعيداً عن الرقباء عاشقاً لا هيا يهيم بالمرأة جسداً وروحاً، وهو حاشاه أن يقتحم الجسد قبل أن يمتلك الروح ولا يتعامل مع المرأة من خلال جسدها على ما أعرف وكما يبدو في شعره، فهو يسقطها في حبه أولاً فيمتلكها من الداخل فإذا بها تتساقط بين يديه مثل ثمرة ناضجة. ويظل الحمداني كما ذكرت في أول حديثي عن هذا المحور هو البؤرة الأهم في القصيدة وحوله تدور كل الاحداث والمشاعر تلاحقه المرأة وتبذل كل ما في وسعها من أجل ارضائه، فهي التي تبكي لفراقه وتتحسر على ايامها معه، وهي التي تقرأ شعره لتتمتع به وتتذكر ايامهما وهو بعد ذلك يتأثر لتأثرها ويبوح لها بما لديه كما نلاحظ في قصيدته ((دمعة))[24]:

لم أجريت دمعةً فوق شعري ألكي تطفئي وقيدة جمري
كان أورى مسيلها من لهيبي وأوار الجفون من نار صدري
وعزيز علي سكب دموعٍ من عيون أرى بها الدهر يجري

وحينما كان الحمداني استاذاً في إحدى الجامعات السعودية ألتفت من جملة ما التفت إلى رغبة عمر بن أبي ربيعة وهو يطوي البيد من أجل الوصول إلى (نعم) حبيبته، أليس الحمداني هو المعادل الموضوعي لعمر بن أبي ربيعة؟ أنه هو في مغامراته وعشقه غير الموحد ورغبته في اهتمام النساء به هكذا كان يتجسد في هذه (المفارقة) وهو يصف أرض نجد وما فيها وما عليها وإذا به يتذكر (عمر بن أبي ربيعة) ويصف روعته وجمال شعره، يقول في قصيدته (ارض الحجاز)[25]:

أرض الحجاز أيا بيداً بها خطرت قوافل الشعر يحدو سيرها عمرُ
ماضيٍ (لنعمٍ) وإن أقصت مضاربها فقد يكون له من (نعمه) وطرُ

غير أن الحمداني لا يستمر على هذه الحال التي ذكرنا فهو انسان قبل أن يكون شاعراً ولعله يميل إلى صورة المرأة كما هي في الشعر العربي فإذا به يتألم

ويشكو ويتمنى أن يذوب بعيني حبيبته مثلما ذاب قلبه، وقد يتمادى إلى الحد الذي لا يريد غير جفنها ليفترش الاسفل ويتغطى بالأعلى كما في قصيدته (لن أضيع)[26]:

ليتني ذبت بعينيك كما قلبي يذوبُ
ليتني افترش الظلمة فيها واغيبُ
ليتني نمت على دفئهما حيث اللهيبُ
أتغطى بجنون هكذا يغفو الحبيبُ

والحمداني لا يطمح من المرأة لقاءً عابراً تمنحه إياه عن تفضيل وخوف وإنما يريده لقاءً حميمياً ساخناً متقداً مؤثراً يزلزل كيانه ويمحوه عن عالم الوعي إلى عالم الضياع الجميل في خضم مفاتنها، يقول في قصيدته (على غير موعد)[27]:

عرفت اللقا أما يطول فرائعٌ وإلا فلحظات اللقاء هي اللحد
فجودي إذا ما شئت أحيا فإنما حياة لقانا يا حبيب هي الخلد

ولا اريد أن أطيل كثيراً في الحديث عن الحب الحسي في شعر الحمداني ولنتركه ليخص ما الذي يريده من المرأة؟! ويطمح إليه ويتمناه ويعشقه، وهو بلا شك لا يخرج عما قلناه:

أرى شفتيك فوقهما الرضاب وأبصر مقتليك بها العتاب
وألمح شعرك الليلي تغفو به الدنيا وكل سناً يذاب
أرى نهديك أعبد كل صدر إذا قامت بهيكله القبابُ [28]

وفي الديوان قصائد كثيرة جداً لا تخرج عما استشهدنا به من شعر في إطار تقسيمنا الذي ذكرناه ولقد آلينا أن نقف عند بعض النماذج الشعرية التي تمثل الثيمة الأهم في قصائد الحب والمرأة، بعد أن كان الحمداني يبذل الحب لكل أنثى جميلة لكننا نراه في آخر كهولته ((يحب انسانة بعينها، وفي ذلك تطور في الحب لديه، وكان ذلك على مشارف الاربعين، ينهج منهجاً خاصاً حين يجعل الحب يقوم على القلوب لا على النجوم التي تترنح في الفضاء، لأن الذين يؤرخون حياتهم بمطالع الأفلاك لا يحيون أبداً))[29].

ويبقى الحمداني عاشقاً محبوباً تجرفه المشاعر حيناً فيقع لاهثاً حزيناً متألماً لبعد الحبيبة أو تمنعها فيستخرج كل ما لديه من أساليب الاقناع لتقع بين يديه أو يصبح (نرجسيا) يرى أنه هو المتفضل على المرأة لأنه يمنحها ما تطمح إليه

من مشاعر وأثارة فهي الشاكية المتعذبة لا هو وقد يتألم لألمها من حبه وشكوها من بعده وهو مع كل ذلك صادق في حبه على الرغم من عدم توحده ولا يكون حب للحمداني من دون امتلاك الداخل ولا يقبل مطلقاً بالمرأة الجسد.

الهوامش:

(1) المرأة في الشعر العراقي الحديث، (أطروحة دكتوراه) : 200، وينظر: المرأة في الشعر العراقي الحديث، احمد فياض المفرجي، مطبعة الجامعة- بغداد: 265.

(2) ينظر:

https://aladabj.uobaghdad.edu.iq/index.php/aladabjournal/article/view/3077

(3) ينظر الشعر الحر في العراق، يوسف الصائغ، مطبعة الأديب- بغداد 1978: 120.

(4) ينظر تطور الشعر العراقي الحديث في العراق/ د. علي عباس علوان، وزارة الثقافة بغداد 1975: 11.

(5) الشعر كيف نفهمه ونتذوقه، اليزابيث درو، مكتبة ميمنة- بيروت 1961: 106.

(6) المرأة في الشعر العراقي الحديث، (أطروحة دكتوراه) : 200، وينظر: المرأة في الشعر العراقي الحديث، احمد فياض المفرجي، مطبعة الجامعة- بغداد: 265.

(7) نقلاً عن الحب بين تراثين: ناجية مراني، دار الحرية- بغداد 1985: 29، وينظر اتجاهات الشعر العربي المعاصر، د. احسان عباس، دار القبس-الكويت1978: 194- 195.

(8) الحب بين تراثين: 30.

(9) الحب المثمر، ترجمة سلمى الخضراء م المعرفة ع32 ت1/1964: 40.

(10) مع الناقد مدني صالح، عادل كامل، م آفاق عربية ع1 في ك2/ 1986 ص78.

(11) نظرات نقدية، د. نوري القيسي، دار الكتب- الموصل 1977: 40.

(12) ينظر على سبيل المثال لا الحصر: مشكلة الحب: 231، والكون الشعري عند نزار قباني: 192. وجمال المرأة عند العرب، وماذا تقولون عن الحب م الوطن العربي ع278 في حزيران/ 1982، ودراسة الحب في الأدب العبي: 41.

(13) ديوان الحمداني: 15/1- 16.

(14) ديوان الحمداني: 23/1.

(15) ديوان الحمداني: 45/1، وتنظر قصيدته (البرعم النديان) ص98 وهي وصف لمفاتن امرأة شابة اعجبته.

(16) ديوان الحمداني: 66/1.

(17) ديوان الحمداني: 79/1.

(18) ديوان الحمداني ، 84/1.

(19) ديوان الحمداني: 104/1.

(20) م. ن: 136/1.

(21) المرأة في حياة العقاد، د. عبد الحي ذياب، دار الشعب- مصر 1969: 132.

(22) ديوان الحمداني: 123/2.
(23) ديوان الحمداني: 42/2.
(24) ديوان الحمداني: 50/2.
(25) م. ن، 61/2.
(26) ديوان الحمداني: 64/2.
(27) م. ن: 72/2.
(28) م. ن: 82/2.
(29) المرأة في حياة العقاد: 63.

Women and love in the poetry of Hadi al-Hamdani

Prof Dr. Rabab Hashim Hussain

College of Education

Al-Mustansiriya University

dr.rabab.h.h@uomustansiriyah.edu.iq

Keywords: women, love, representations of women, ancient and modern.

Summary:

Women occupied a prominent place in the poetry of the poet Firas al-Hamdani

The importance of the presence of women in the poetry of Arab poets, since poetry was known until now, did not stem from her being the main axis in all poetic purposes and the most sincere in expressing the poet's self, and the most closely attached to the beat of art and literature, but it is considered one of the most important sources for studying the emotional and social life of the poet and then the society in which In which he lives, the emotional aspects are not less important than the material life because they reflect the general taste and the nature of the relationship between men and women and their position in the midst of the male-dominated society that dominates life in our Arab countries despite the tremendous development and European influences in the joints of our societies.